الفنون النثرية: (أدب الرحلة)

عرفت البشرية الرحلة منذ سيدنا آدم عليه السلام، وقد مارس العرب الترحال في شبه الجزيرة العربية وما جاورها من بلدان، وكان غرضهم الأساس من هذه الرحلات البحث عن مواطن الماء والكلأ والتجارة. وقد حملت هذه الرحلات تجارب وخبرات وحكايات اختلط فيها الواقعي بالمتخيّل، وظلت هذه الرحلات تروى شفويا إلى غاية القرن "التاسع الميلادي"[1] الذي كان "بداية التأريخ للرحلات العربية المكتوبة".[2] وقد تنوعت الكتابات وتعددت بتعدد مجالات وتخصصات مؤلفيها في التاريخ والجغرافيا والأدب وغير ذلك.

وقد نتج عن هذا النوع من الكتابة في مجال الأدب ما يعرف بأدب الرحلة، أو الرحلة، أو الأدب الجغرافي، فما هي الرحلة ومتى نشأت؟

1 . الرحلة لغة:

ارتبطت الرحلة في معاجم اللغة بالحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر، ففي معجم لسان العرب: "رحَل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا، ورجل رَحُول، وقوم رُحّل أي يرتحلون كثيراً، ورجل رَحَّال: عالم بذلك مُجيد له، وإبل مُرَحَّلَة: عليها رِحَالُ،... وارتَحَلَ البعير: سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالا. ورَحَلَ عن المكان يَرْحَل وهو رَاحِلٌ من قوم رُحَّل: انتقل. والرحلة والارتِحَالُ: الانتقال وهو الحرحْلة والرحْلَة: اسم للارتحال للمَسِير"[3].

وجاء في مقاييس اللغة في مادة (رحل): "رحل: الراء، والحاء، واللام أصل واحد يدل على مضيٍّ في سفر، والحرحْلة: الارتحال"[4]. وبهذا المعنى لكلمة الرحلة جاء في القرآن الكريم في

1 ـ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، عهد الشارقة للتراث، 2025، ص: 5.
2 ـ المرجع نفسه، ص: 5.
3 ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 5، تص: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصّادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط 3، 1999، ص: 172.170.
4 ـ أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج2، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،1979، مادة رحل، ص: 497.

سورة قريش: "**لإيلاف قريش إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشتاء والصَّيفِ**".[1] إشارة إلى رحلتي قريش بغرض التجارة الأولى في الشتاء إلى اليمن، والثانية في الصيف إلى الشام.

2 . الرحلة اصطلاحا:

الرحلة هي انتقال فرد أو مجموعة أفراد من مكان إلى مكان آخر، بغية تحقيق أهداف معينة في فتّة معينة.[2] والمفهوم المقابل لما يكتب عن الرحلة، أو ما يعرف بأدب الرحلات لم يضبط له تعريف محدد، ففي حين يرى البعض أنه "ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعا، أو بمعنى آخر: الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري مميز، وفي لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة".[3] يراه البعض الآخر أعم وأشمل من أن يحصر في فن النثر، فهو "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة. وقد يتعرض لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، تسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته، مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد".[4] ،فقد نجد أدب رحلة في قصيدة شعرية مطولة كالقصيدة الرحجية للورجلاني (وهو الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الورجلاني وهو من أبرز علماء الِباضية في إفريقيا الشمالية) مثلا، في وصف الرحلة إلى احرج، كما نقرأ أدب رحلة يقتبس من فن السيرة الذاتية، والمقامة والقصة... ويتقاطع أدب الرحلة أو يتحاور مع العديد من المعارف والعلوم منها: الحكايات الشعبية، الأساطير، الملاحم، التاريخ، الجغرافيا، الأنثروبولوجيا... مما يجعل كتابة الرحلة في "بعض الأحيان مرجعا وثائقيا تاريخيا هاما، وموضوعا للدراسات المقارنة في مختلف مجالات الأدب، والفكر والحياة"،[5] وعليه طرحت إشكالية تجنيس أدب الرحلة، وإيجاد المصطلح المناسب له، ففي الوقت الذي يرى البعض علميته ويعدونه وثيقة لدراسة مختلف البنى التاريخية والجغرافية والأنثروبولوجية... فيطلقون عليه اسم الرحلة فقط "بهدف فتح نافذة إضافية أخرى

1 ـ سورة قريش، الآيتين: 1.2.
2 ـ عواطف محمد يوسف نواب، الرّحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص 24.43.
3 ـ سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، ص:5.
4 ـ مجدي وهبه، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، لبنان، ط2، 1984، ص: 17.
5 ـ إيميل بديع يعقوب، ميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، نحو، صرف، بلاغة، عروض، إملاء، فقه اللغة، أدب، نقد، فكر أدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987، ص:11.

على التاريخ، واعتبار الرحلة مصدرا غنيا، وسجلا إثنوغرافيا يعتبر الرجوع إليه أساسيا في حقل الأنثروبولوجيا، ومادة جغرافية يجزم الجغرافيون بأن ولادتها كانت من رحم الرحل الجغرافي"[1] يرى غيرهم عكس ذلك فقد "امتزجت في هذه النصوص المعلومات بالمغامرات، والواقع بالأساطير، ذات الكاتب ومشاهداته، التجربة والحركة مع الخيال، السحر مع الغرائب والعجائب"[2] لذا لا يمكن الاعتداد بدقة معلوماته، وبالتالي إخراجه من دائرة العلمية، وإدراجه ضمن الأدب. فإذا كان أبرز ما يميز أدب الرحلات تنوع الأسلوب من السرد القصصي إلى الوصف إلى الحكاية... فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي، المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى[3] لذا اعتبره شوقي ضيف فنا قصصيا، وهو بذلك "خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة".[4] واقتصاره فقط على الشعر. وهناك قسم ثالث من النقاد يرى أن "الرحلة نص مفتوح لا يمكن أن يتسيج في خانة محددة تجنسه بصفة معينة تضيق من تحرره واتساعه وانتشاره وهجومه الضروري على حقول أخرى. لذا فإن القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي الذات والآخر، وجسور التعبيرات المختلفة عنهما وحولهما"[5].

انطلاقا مما سبق يمكننا القول بأن أدب الرحلة جنس أدبي قائم بذاته، يقوم على محكي السفر، له مميزاته وخصائصه التي تمنعنا من إدخاله ضمن الجغرافيا، أو ضمن التاريخ، أو ضمن الأنثروبولوجيا، أو ضمن الفن القصصي، مع الاعتراف بانصهار مجموعة من الخطابات الأدبية وغير الأدبية فيه، لتعطي مادة خصبة تزاوج بين المعلومة والفنية في التقديم.

3 . عناصر الكتابة الرحلية:

أ. السرد: وهو أول ركائز الكتابة السردية[6].

1 ـ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص:38.
2 ـ فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التّراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص: 13.
3 ـ ص: 24.23.
4ـ شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن القصصي، 4 الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص:6.
5 ـ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص:40
6 ـ الطاهر الحسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، بناؤها الفن أنواعها وخصائصها، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ص :22.

ب. الوصف: السرد والوصف نمطان خطابيان يتناوبان على طول الخطاب الرحلي، فالراوي يسرد عندما يتحدث عن المتحرك، ويصف عندما يتحدث عن الساكن[1]

ت. التّعليق: مضيفا عليه من ذاته، من خلال انطباعاته[2].

ث. المعرفة: بتضمنها العديد من المعارف[3].

4 . خصائص ومميزات أدب الرحلة:

تتميز الكتابة الرحلية بجملة من الخصائص تتمثل فيما يلي:

أ. هيمنة بنية السّفر: التي تؤطر الأحداث وتنظمها من حرزة الانطلاق إلى حرزة الرجوع.

ب. الذاتية: تحضر ذات الرحالة حضورا بارزا، فهي تحتل المركز في الحركة والترحال، وتصطبغ الرحلة بألوانها.

ت. الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا: وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة.

ث. الواقعية: فالرحالة رجل واقعي قام بالرحلة حقا، كذلك الأشخاص الذين تحدث عنهم، والأماكن التي ذكرها في رحلته أماكن لها وجودها على الأرض حقا، وبهذه الخصيصة تتميز الرحلة عن الرواية والمقامة المبنيتين على الخيال.

ج. دور الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق: فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحالة من موطنه، ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يدور الخطاب مع السفر، وينتهي من حيث بدأ.

ح. تعدد المضامين وتداخل الخطابات: تشتمل الرحلة على الكثير من الخطابات الأدبية وغير الأدبية، وعلى الكثير من المعارف كما أسلفنا سابقا.[4]

---

1 ـ جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2014-2015، ص:18.

2ـ الطاهر الحسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، بناؤها الفن أنواعها وخصائصها، مصدر سابق، ص: 22

3ـ جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، مرجع سابق، ص: 17.

4 ـ المرجع نفسه، ص: 19.

5 . قيم الرحلة:

أدب الرحلة يحمل قيمتين بارزتين: "القيمة العلمية، والقيمة الأدبية". الأولى تأتي مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية، والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها مما يدونه الرحالة تدوين المعاين في غالب الأحيان، من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة، بمعنى أنه ينقل ما يراه ليضعه بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع أو الاقتصاديين... أما أسلوب الكتابة واللغة التي يتوسل بها كاتب الرحلة فإنه قد يضيف إليها قيمة أدبية، وخاصة عندما يحتفل بالأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف."[1] بالإضافة إلى هاتين القيمتين توجد قيمة أخرى هي القيمة التعليمية، من كون هذا النوع من الكتابات يسهم في تثقيف القارئ."[2]

6 . نشأة الرحلة وتطورها عند العرب:

تعد معرفة وممارسة العرب للرحلة متجذرة في القدم، لكن بالنسبة إلى تلفيظ الرحلة أو الأدب الرحلي فلم يثبت وجوده قبل القرن التاسع (الثالث الهجري)، فقد كان هذا القرن بحق عصر الانبثاق،[3] وتزامن ذلك مع انتشار المصنفات عن المسالك والممالك وغير ذلك. وقد ألفت "قرب نهاية هذا القرن المداخل الجغرافية التي وضع البعض منها لكتاب الدواوين والبعض الآخر للمشتغلين بالأدب"، كذلك تنوعت أوصاف الرحلات فغلب على بعضها العنصر الواقعي بينما احتفظ البعض الآخر بالطابع القصصي، أما القرن العاشر فهو العصر الذي بلغ فيه الأدب الجغرافي أوجه،[4] ومن أمثلة مؤلفات هذين القرنين: "رحلة سلام الترجمان سنة 227 هـ/ 842 م، ورحلة سليمان التاجر 237 هـ/ 851 م، ورحلة ابن وهب القرشي سنة 257 هـ/ 871 م، ورحلة ابن موسى المنجم سنة 277 هـ/ 850 م، ورحلة اليعقوبي سنة 226 هـ/ 908 م"، بيد أن هؤلاء لم يدونوا رحلهم بل وصلت إلينا عن طريق الرواة والمؤرخين الذين أشاروا إليها،

1- سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مصدر سابق، ص: 8.
2 - المرجع نفسه، ص: 8.
3- اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة: إيغور بليايف، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، 1957، ص: 20.
4 - اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، مرجع سابق، ص:20.

وأوردوا مختارات منها في مصنفاتهم، أما 119 م إلى بلاد البلغار / الرحل المدونة، فأقدمها فيما نعلم رحلة ابن فضلان التي قام بها سنة 309هـ/921م بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله ليقوم بتفقه الناس في تلك البلاد بالتعاليم الدينية الإسلامية.[1] ومع نهاية هذا القرن "ينتهي الطور الخلاق في الأدب الجغرافي العربي، الذي أصابه العقم بعد ذلك فلم ينتج أي صور جديدة، بل اكتفى بتقليد الأنماط السابقة"،[2] وبقي أدب الرحلة على هذا الجمود قرونا عدة حتى القرن التاسع عشر حيث عادت إلى البزوغ والازدهار.

7 . أدب الرحلة في العصر الحديث في المشرق والمغرب:

بعد قرون من الجمود للأدب الرحلي عاد البزوغ والازدهار من جديد في ثوب مختلف مع السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وتحديدا بعد الحملة الفرنسية على مصر، وقد بدأها محمد عمر التونسي سنة 1903 م برحلة إلى بلاد العرب والسودان، وضمّنها كتابه "تشحيد الأذهان". وتلاه الطهطاوي الذي عبد طريقاً فسيحاً للرحلة بكتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريس"[3] الذي يعد واحدا من أهم الكتب الرحلية التي كتبت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد رحلة بعثية رافق فيها الطلبة إلى باريس، واصفا فيه أحوال العلوم والفنون والصنائع وأحوال المجتمع هناك، وكان انبهار الطهطاوي الحضاري بارزا في كتابه، لكن رغم ذلك انتقد العيوب التي وقف عليها، فكما أنه وصف الجمال وصف القبح أيضاً، ولم ير في القبح إلا ما خالف الشريعة الإسلامية. مكث الطهطاوي بفرنسا ست سنوات يسجل فيها كل ما يراه ويعلق عليه، بلغة سهلة واضحة، وأسلوب يجمع بين علمية الوصف وأدبية الطرح في كثير من الأحيان ليناسب القراء بمختلف توجهاتهم، من ذلك "وبها، يعن ببلاد آسيا العرب، وهم أفضل القبائل على الإطلاق، ولسانهم أفصح الألسن باتفاق، وفيهم بنو هاشم، الذين هم ملح الأرض وكبدة المجد، ودرع الشرف".[4]

1 ـ علي إبراهيم كردي، أدب الرحل في المغرب والأندلس، الهيئة العامة السورية للكتاب، سوريا، 2013، صـ 10.
2 ـ المصدر نفسه، ص: 21.
3 ـ فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مرجع سابق، ص: 81.
4 ـ رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012، ص:27.

سار على درب الطهطاوي "كوكبة من الرحالة يتقدمهم محمد عياد الطنطاوي بكتاب "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا".[1] كتب الطنطاوي كتابه خلال وفادته إلى أوروبا الشرقية "روسيا" بعد استدعائه للتدريس في مدرسة الألسن الشرقية،[2] وتم تبييضه كما صرح بذلك مؤلفه عام 1850،[3] ، وقد حاول من خلاله أن يحذو حذو الطهطاوي في رحلته حتى في منهج التأليف[4] هو كتاب حشد فيه مجموع مشاهداته وتأملاته لبلاد الروس وسكانها ونظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية... حتى فنونهم، بأسلوب أدبي، يتجلى فيه التنميق اللفظي والاهتمام بالمحسنات البديعية واللفظية أهمها السجع، إلى جانب الصور البيانية، من ذلك قوله: "في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هادئ، والقمر هادئ، والملاح حادي والنوى شادي، فهبت بعد برهة روائع الأكهار، فاستنشقها الأنف ولا القلب استطار...".[5] وقد كتب رحلته بمنهجية، فحدد موضوع مؤلفه الذي أراد له أن يكون "ديوان علم وسمر" لا يخلو من شذرات علمية، ونكات أدبية، وطُرَف استحسانية، ومُلَح اختّاعية"، استهله ببيان فضل السفر والرحلة، ثم السبب وراء كتابة تدوين هذه الرحلة. ليبدأ بعد ذلك في سرد تفاصيل رحلته التي بدأت في 26 مارس 1840 من القاهرة حتى وصوله إلى بتبورغ في 30 حزيران 1840، مقسما إياها إلى ثلاثة أبواب: الباب الأول بمنشأ الروس وولاية نوفغورد، والباب الثاني تعرض فيه لبيتّبورغ من نواح مختلفة تاريخية، جغرافية، اجتماعية، إثنوغرافية... أما الباب الثالث فكان متعلقا بالشعب الروسي، دياناته، أخلاقه، عاداته وتقاليده.

وفي المغرب نجد عبد السلام الناصري (1732) أولى اهتماما بالغا بهذا النوع من الأدب، فألف فيه كتابين: الرحلة الناصرية الكبرى، والرحلة الناصرية الصّغرى 1976، وهما من الرحلات الرحجية التي كان غرضها أداء مناسك الحج. كتب المؤلف كتابه الرحلة الناصرية الكبرى بمنهجية العارف لهذا النوع من الأدب فحدد موضوع مؤلفه في المقدمة، وقد كتبه كما

1 ـ فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التّراث العربي، مرجع سابق، ص: 81.
2 ـ محمد عياد الطنطاوي، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية، المسماة تحفة الأذكياء بأخبار روسيا، تقديم: محمد عيسى صالحية، دار البشير للنشر، عمان، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص:50.
3 ـ المصدر نفسه، ص: 244.
4 ـ المصدر نفسه، ص: 38.36.
5 ـ المصدر نفسه، ص:55.

أراده "ديوان علم وسمر"،[1] وقد استهل هذه الرحلة بتحديد مضمونها وغرضها قائلا: "وبعد، فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما عني في سفري للحرمين الشريفين من وصف المراحل والبلدان والمياه، وذكر من لقيته من الفضلاء، وما أجبت به عن سؤال بعض النبلاء، أو من سائر الجفلاء، وبيان ماكرته من الأحياء والأموات، وغير ذلك من الأحداث والنوادر والأخبار، متكلا في بيان ذلك على الواحد الأحد الغفار، والباعث على ذلك، وإن كنت لا من أولئك ولا ممن يليق أن يسلك تلك المسالك، خدمة للعلم الشريف والتعرض لنفحات الجناب النبوي المنيف".[2] بعد ذلك ذكر بالتفصيل في فصول فضائل عبادة الحج وآداب الرحلة وذكر ما يحتاج إليه المسافر من أدوات وأثاث، لتبدأ بعد ذلك الرحلة انطلاقا من مقر الزّاوية الناصرية بتامكروت مرورا بالعديد من المدن والبلدان وصولا إلى البقاع المقدسة وأداء مناسك الحج، هذا في الجزء الأول أما الجزء الثاني فكان مخصصا لرحلة العودة بعد إتمام الفريضة، وقد حرص المؤلف على التفاصيل؛ سواء في الوقوف على المراحل أو الأماكن، وكل ما اعتمدهم وما صادفوه وواجهوه أثناء الرحلة، وفيها أيضا طرح للكثير من القضايا التي طرحت عليه، إجابات شيوخه وغير ذلك الكثير، وقد تعرض بالنقد للعديد ممن سبقه بالكتابة في هذا الجنس الأدبي، من ذلك انتقاده للعبدري لاجتنابه الموضوعية في وصفه، من ذلك تحامله على أهل طرابلس والجحاف في حقهم[3].

لقد كانت هذه الرحلة سجلا حافلا بمختلف القضايا: السياسية، الاجتماعية، العلمية، الثقافية... إلى غير ذلك بالمغرب والمشرق حينها، فكانت بحق غنية بالمعارف والطرائف بأسلوب سلس ممتع، يحمل القارئ على التنقل بين مختلف مراحلها دون كلل أو ملل، فيحصل المتعة والفائدة معا.

1 ـ عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، ج1، تح: المهدي الغالي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2013، ص:7.
2 ـ المصدر نفسه، ص: 51.
3ـ المصدر نفسه، ص: 330.